الانتحار

ـ ٦ ـ

تتمَّة

قال المسيَّب بنُ رافعٍ : وانفضَّ مجلسُ الشَّيخ ، ودَرَجَتْ بعده أعوامٌ في عدَّة الشُّهور مِنْ حَمْل المرأة ، بلغت فيها أمورُ النَّاس مبلَغها من خير الدُّنيا وشرِّها ، ممَّا أعرفُ ، وما لا أعرف ؛ ودخلْتُ البصرة أنا ، ومجاهدٌ الأزديُّ ، نسمع الحَسَنَ[1] ، ونأخذ عنه ؛ فإنَّا لسائران يوماً في سِكَّة بني سَمُرَة ؛ إذ وافقْنا الفتى صاحبَ النَّصرانية مُقبلاً علينا ، وكنَّا فقدناه تلك المدَّة ، فأسرعَ إليه مجاهد ، فالتزمَه ، وقال : مرحباً ! مرحباً بذي نَسَبٍ إلى القلب . وسلَّمتُ بعده ، وعانقته ، ثُمَّ أقبلنا نسأله ، فقتل له : ما كان آخِرُ أوَّلِك ؟ قال مجاهد : بل ما كان آخرُ أولِّها هي ؟

فضحك الرَّجل ، وقال : النَّصرانيةَ تعني ؟ قال : آخرُها من أولها كهذا مني ، وأومأ إلى ظلِّه في الأرض ممدوداً ، مشبوحاً ، مختلِطاً ، غيرَ متميِّزٍ ؛ كأنَّه ثوبٌ منشورٌ ، ليس فيه لابِسه ، وكنَّا في السَّاعة التي يصير فيها ظلُّ كلُّ شيءٍ مِثليْهِ ، فهو مَزْجُ المَسْخ بالمسْخ .

قال مجاهد : ما أفظَّ جوابكَ ، وأثقلَه يا رجل ! كأنَّك والله ! تاجرٌ لا صلةَ له بالأشياء إلا من أثْمانها ؛ فنظرُه إلى فَراهةِ الدَّابة من الدَّوابِّ ، وإلى فراهة الجارية من الرَّقيق سواء .

قال الرَّجل : فأنا والله تاجرٌ ، وأنا السَّاعةَ على طريق الإيوان[2] الذي يلتقي فيه تجارُ العراق ، والشَّام ، وخُراسان ؛ وقد ضربتُ في هذه التجارات ، وحَسُنَتْ بها حالي ، وتَأثَّلتُ[3] منها ، غير أنَّ قلبَ التَّاجر غيرُ التَّاجر ، فليس يَزِنُ ،

---

(١) الحسن البصري : الإمام العظيم . (ع) .
(٢) هذه الكلمة خير ما يعبر بها عن (البورصة) ، وكذلك كانوا يستعملونها . (ع) .
(٣) « تأثلت » : يقال : مالٌ مؤثل ، ومجدٌ مؤثل ، أي : مجموع ، ذو أصل .

ولا يَقبِض ، ولا يبيع ، ولا يشتري . أمَّا « تلك » فأصبحتْ نسياناً ذهب لسبيله في الزَّمن !

قال مجاهد : فكيف كنتَ تراها ، وكيف عدْتَ تنظر إليها ؟

قال : كنت أنظر إليها بعينيَّ ، وأفكاري ، وشهواتي ؛ فكانت بذلك أكثرَ من نفسها ومن النِّساء ، وكانت ألواناً ألواناً ما تنقضي ، فلمَّا دخل بيني وبينها الزَّمنُ والعقل ؛ أبعدَها هذا عن قلبي ، وأبعدها ذاك عن خيالي ؛ فنظرتُ إليها بعينيَّ وحدهما ، فرَجعتْ امرأةً ككلِّ امرأةٍ ، وبنزولها من نفسي هذه المنزلةَ رجعتْ أقلَّ من نفسها ومن النِّساء ، وهذه القلَّةُ فيما عرفتُ لا تُصيب امرأةً عند محبِّها إلا فعلتْ بجمالها مثلَ ما تفعله الشَّيخوخةُ بجسمها ، فأدبَرَتْ به ، ثمَّ أدبرتْ ، واستمرتْ تُدْبر !

وأنتَ فإذا أبصرتَ امرأةً شيخةً قد ذهبَت الَّتي كانت فيها . . . وأخطرْتَ في ذهنك نِيَّةً ممَّا بين الرِّجال والنِّساء ؛ فهل تُراك واجداً الشَّهوةَ ، والميلَ إلا النَّفْرةَ ، والمعْصِية ؟ إنَّ هذا الذي كان ـ الحبَّ ، والهوى ، والعشقَ ـ هو بعينه الذي صار الإثم ، والذَّنبَ ، والضَّلالة !

قال مجاهد : كأنَّك لمَّا ذهبتَ تقتلُ نفسَك من حبِّها ، قتلتَها هي في نفسك ؟

قال : يا رحمةً قد رَحِمَتْ بها نفسي يومئذٍ ! أمَا والله ! إنَّ الذي يقتل نفسَه من حبِّ امرأةٍ لَغبيٌّ . وَيحهُ ! فليتخلَّص من هذا الجزء من الحياة لا من الحياة نفسها . وقد جعلَ الله للحبِّ طرَفين : أحدُهما في اللَّذَّة ، والآخرُ في الحماقة ؛ ما منهما بدٌّ . فهذا الحبُّ يُلقِي صاحبَه في الأحلام ، ويُغَشِّي بها على بصره ، ثُمَّ إنْ هو اتَّجه بطرَفه السَّعيد إلى حظِّه المقبِل ، واتَّفقت اللَّذَّةُ للمحبِّ ، أيقظته اللَّذةُ من أحلامه ؛ وإن اتَّجه الحبُّ بطرفه الشَّقيِّ إلى حظِّه المُدْبر ، وقعت الحماقاتُ فنوناً شتَّى بين الحبيبين ، وفعلتْ آخِراً فِعلَ اللَّذة ، فأيقظَت العاشقَ من أحلامه أيضاً . وهذا تدبيرٌ من الرَّحمة في تلك القوَّة المدمِّرةِ المسمَّاةِ : الحبُّ . أفلا يدلُّ ذلك على أنَّ اللَّذةَ وهمٌ من الأوهام ما دام تحقُّقُها هو فناءَها ؟

خذْ عنِّي يا مجاهد ! هذه الكلمة : « ليس الكمالُ من الدُّنيا ولا في طبيعتها ، ولا هو شيءٌ يُدْرَكُ ، ولكنَّ من عظمَةِ الكمال : أنَّ استمرار العمل له هو إدراكُه » .

قال مجاهد : لقد علمتَ بعدَنا علماً ؛ فمن أين لك هذا ، وعمَّن أخذت ؟

قال : عن السَّماء !

قال : ويلك ! أين عقلُك ، فهل نزل عليك الوحي ؟

قال الرَّجل : لا ، ولكن تَعَالَيَا معيَ إلى الدَّار ، فأحدِّثكما .

* * *

قال المسيَّب : وذهبنا معه ؛ فأُتينا بطعامٍ نظيفٍ ، فأكلنا ، وأشعرتْنا الدَّارُ أنَّ ربَّها قد وقع فيما شاء من دنياه ، وتواصلَتْ عليه النِّعمة ؛ فلمَّا غسلنا أيديَنا ؛ قال مجاهد : هيهِ يا أبا . . . يا أبا مَنْ ؟ قال : أبو عُبَيد . قال : هيهِ يا أبا عبيد . . . !

فأفكَرَ الرَّجلُ ساعةً ، ثمَّ قال : عهدُكما بي منذ تِسْعٍ في مجلس الإمام الشَّعبيِّ بالكوفة ؛ وقد كنتُ في بقيةٍ من النِّعمة أتجمَّل بها ، وكانت تُمسكُني على موضعي في أعينِ النَّاس ؛ فما زالت تلك البقية تَدِقُّ ، وتنفَضُّ حتَّى نكِد عيشي ، ووقعْتُ في الأيام المقعَدَةِ التي لا تمشي بصاحبها ، وانقلب الزَّمنُ كالعدوِّ المُغيرِ جاء ليصْطَلِمَ[1] ، ويُخْرِبَ ، ويُفسِد ، فأثَّر فيَّ أقبح آثاره ، فبعتُ ما بقي لي ، وتحملتُ عن الكوفة إلى البصرة ، وقلت : إن لم تتغيَّر حالي ؛ تغيَّرت نفسي ، ولا أكون في البصرة قد انتهيتُ إلى الفقر ، بل أكون قد بدأتُ من الفقر كما يبدأ غيري ، وأدعُ الماضيَ في مكانه ، وأمضي إلى ما يستقبلُني .

فالتمستُ رُفْقَةً ، فالتأمْنا عشرين رجلاً ، فلمَّا كنَّا في الطريق ، سلبَنا اللُّصوصُ ، وحازوا القافلةَ ، وما تَحويه ، ونجوتُ أنا راكباً فرسي ، وعُمْري ، وأدركتُ حينئذٍ : أنَّ الحياة وحدَها مُلْكٌ عظيمٌ ، وأنَّها هي الأداةُ الإلهيَّة ، والباقي كلُّه هو من أنفسنا لأنفسنا ، والأمرُ فيه هيِّنٌ ، والخَطْبُ يسير .

وقلت : لو أنَّ اللصوصَ قد مرُّوا بنا ، كما يمرُّ الناسُ بالنَّاس ؛ لما نكَبونا ، ولكنَّهم عرضوا لنا عُروضَ اللِّصِّ للمال ، والمتاع ، لا للنَّاس ، فوضعوا فينا الأيديَ الناهبة ؛ ومن هذا أدركتُ : أنْ ليس الشَّرُّ إلا حالةً يتلبَّس بها من يستطيع أن يتخلَّصَ منها . فإذا كان ذلك ؛ فأصلُ السَّعادة في الإنسان ألا يعبأ بهذه الحالات متى عَرَضت له ، وهو لا يستطيع ذلك إلا إذا تمثل الشَّرَّ ، كما يراه واقعاً في غيره ؛

---

(١) « يصطلم » : اصطلم القومَ : أبادهم من أصلهم .

فالمرأة العفيفةُ إذا عرضَتْ لها حالةٌ من الفُجور ، ونظرتْ إلى نفسها ، وحظِّ نفسها ؛ فقد تعمَى ، وتَزِلُّ ؛ ولكنَّها إذا نظرت إلى ذلك في غيرها ، وإلى أثره على الفاجرة ؛ كانت كأنَّما زادت على نفسها نفساً أخرى ، تُريها الأشياء مجرَّدةً ، كما هي في حقائقها .

قال : ومضيت على وجهي تتقاذفني البِقاعُ ، والأمكنةُ ، وأنا أعاني الأرضَ ، والسَّماء ، وأخشى الليلَ ، والنَّهار ، وأكابدُ الألمَ ، والجوع ، حتَّى دخلتُ البصرة دخولُ البعير الرَّازح[1] ، قَطَع الصَّحراءَ تأكلُ منه ، ولا يأكل منها ، فأضناه السَّفر ، وحَسَره الكَلالُ ، ونَحتَه الثِّقل ؛ الذي يحمله ، فجاء ببِنْيةٍ غير التي كان قد خرج بها . وكانت أيَّامي هذه عمراً كاملاً من الشَّقاء ، جعلتني أوقن : أنَّ هؤلاء النَّاسَ في الحياة إنْ هم إلا كالدَّوابِّ تحت أحمالها : لا تختار الدَّابةُ ما تحملُ ، ولا من تحمل ، ولا يُترَكُ لها مع هذا أن تختارَ الطَّريق ، ولا مدَّةَ السَّير ؛ وليس للدَّابة إلا شيئان : صبرُها ، وقُوتُها ؛ إن فقدتهما ؛ هلكتْ ، وإن وَهَنَا فيها ؛ كان ضعفُها بحسب ذلك .

إنَّ هناك أوقاتاً من الشَّقاء ، والبؤس تقذف بالإنسان وراء إنسانيته ، وإنسانيةِ البشر جميعاً ، لا تبالي كيف وقع ، وفي أيِّ وادٍ هلَك ؟ فلا ينفع الإنسانَ حينئذٍ إلا أن يعتصمَ بأخلاق الحيوان ، في مِثل رضاه الذي هو أحكمُ الحكمة في تلك الحال ، وصبرِه الذي هو أقوى القوَّة ، وقناعتِه التي هي أغنى الغنى ، وجهلِه الذي هو أعلمُ العلم ، وتوكُّلِه الذي هو إيمانُ فطْرته بفطرته . لا يبالي الحيوان مالاً ، ولا نعيماً ، ولا متاعاً ، ولا منزلةً ، ولا حظّاً ، ولا جاهاً ، ولن تجدَ حمارَ الملكِ يعرفُ من الملك أكثرَ مما يعرف حمارُ السَّقَّاءِ من السَّقَّاء ؛ ولعلَّك لو سألتَهما ، وأطاقا الجوابَ ؛ لقال لك الأوّل : إنَّ الذي فوق ظهري ثقيلٌ ، مَقِيتٌ ، بغيض . ولقال لك الثاني : إنَّ الذي يركبه خفيفٌ ، سهلٌ ، سَمْح !

ولكنَّ بلاءَ الإنسان : أنَّه حين يُطَوِّحُهُ البؤسُ ، والشَّقاءُ وراء الإنسانية ؛ لا ينظر لغير النَّاس ، فيزيده ذلك بؤساً ، وحسرةً ، ويَمحَقُ في نفسه ما بقي من الصَّبر ، ويقلبُ رضاه غيظاً ، وقناعتَه سخطاً ، ويبتليه كلُّ ذلك بالفكرة المهلِكة

---

(١) « الرازح » : رزحت الناقة : سقطت إعياءً ، أو هزالاً ، فهي رازح .

أعجزها أن تُهلك أحداً ، فلا تجد مَنْ تُدَمِّرُه غيرَ صاحبها ؛ فإذا هي وجدتْ مَسَاغاً إلى النَّاس فأهلكتْ ، وعاثَتْ ، وأفسدتْ ؛ جعلتْ صاحبَها إمَّا لصّاً ، أو قاتلاً ، أو مجرماً ، أيَّ ذلك تيسَّر !

* * *

قال : وكنتُ أعرف في البصرة فلاناً التَّاجر من سَراتِها(١) ، ووجوهِ أهلها ، فاستطرقْتُه ؛ فإذا هو قد تحوَّلَ إلى خُراسان ، وليس يعرفني أحدٌ في البصرة ، ولا أعرف أحداً غيرَه ؛ فكأنَّما نُكِبتُ مرَّةً ثانية بغارةٍ شرٍّ من تلك ، غير أنَّها قطعت عليَّ في هذه المرَّة طريقَ أيَّامي ، وسلبتْني آخرَ ما بقي لنفسي ، وهو الأمل !

ورأيتُ : أنَّه ما من نزولي إلى الأرض بُدٌّ ، فأكونَ فيها إنساناً كالدَّابة ، أو الحشرَة : حياتُها ما اتَّفق ، لا ما تريد أن يتَّفق ؛ وأنَّه لا رأي إلا أنْ أسخَر من الشَّهوات فأزهَدَ فيها ، وأنا القويُّ الكريم ، قبل أن تسخرَ هي منِّي إذا جئتها ، وأنا الطَّامعُ العاجز !

وفي الأرض كفاية كلِّ ما عليها ، ومن عليها ، ولكن بطريقتها هي ، لا بطريقةِ النَّاس ؛ وما دامت هذه الدُّنيا قائمةً على التَّغيير ، والتَّبديل ، وتحوُّل شيءٍ إلى شيء . فهذا الظَّبيُ الذي يأكله الأسدُ لا تعرفُ الأرضُ : أنَّه قد أُكِلَ ، ولا أنَّه افْتُرِسَ ، ومُزِّق ، بل هو عندها قد تحوَّل قوةً في شيءٍ آخر ، ومضى ، أمَّا عند النَّاس ؛ فذلك خطبٌ طويلٌ في حكاية أوهامٍ من الخوف ، والوَجَل ؛ كما لو اخترعتَ قصَّةً خرافيَّةً تحكيها عن أسدٍ قد زَرَعَ لحماً . . . فتعهَّده ، فأنبتَه ، فحصدَه ، فأكلَه ، فذهبَ الزَّرعُ يحتجُّ على آكله ، وجعل يشكو ، ويقول : ليس لهذا زرعْتَني أنت ، وليس لهذا خرجتُ أنا تحت الشَّمس ، وليس من أجل هذا طلعت الشَّمسُ عليَّ ، وعليك !

والإنسانُ يرى بعينيه هذا التغييرَ واقعاً في الإنسانيَّة عامَّتِها ، وفي الأشياء جميعِها ؛ فإذا وقع فيه هو ؛ ضجَّ ، وسَخِط ، كأنَّ له حقّاً ليس لأحدٍ غيرِه ، وهذا هو العجيبُ في قصَّة بني آدم ، فلا يزالُ فيها على الأرض كلماتٌ من الجنَّة ، لا تقالُ هنا ، ولا تُفهَم هنا ؛ بل مَحلُّ الاعتراضِ بها حين يكونُ الإنسان خالداً لا يقع فيه

(١) « سراتها » : سراة كل شيء : أعلاه . وسروات القوم : سادتهم ورؤساؤهم .

التغيير ، والتبديل . ومن هذا كان خيالُ اللَّذةِ في الأرض هو دائماً باعثَ الحماقةِ الإنسانيَّة .

قال أبو عُبيد : وذهبتُ أعتَمِلُ بيديَّ ، وجسمي على آلامٍ من الفاقة ، والضُّرّ ، ومن الخيبةِ ، والإخفاق ، ومن إلجاءِ المسكنَة ، وإحواج الخَصَاصة[1] ؛ فلقد رأيتُني وإنَّ يدي كيدِ العبد ، وظهري كظهر الدَّابَّة ، ورجلي كرجل الأسير ، وعنقي كعنق المغلول ، ويطلعُ قرصُ الشَّمس على الدُّنيا ، ويغيبُ عنها ، وما أعتمِلُ إلا بقُرصٍ من الخبز ، ولقد رأيتُني أبذُلُ في صيانة كلِّ قطرةٍ من ماء وجهي سحابةً من العرَق حتَّى لا أسأل النَّاس ، ويا بؤساً لي إن سألتُ ، وإن لم أسأل !

وما كان يُمسِكني على هذه الحياة المُرَمَّقةِ[2] ـ تأتي رَمقاً بعد رَمَق في يومٍ يوم ـ إلا كلامُ الشَّعبيِّ ؛ الذي سمعتُه في مسجد الكوفة ، وقولُه فيمن قتل نفسَه ، فكان كلامهُ نوراً في صدري يُشرق منه كلَّ يومٍ مع الصُّبح صبحٌ لإيماني . ولكن بقيتْ أيامُ نعمتي الأولى ولها في نفسي ضَرَبانٌ من الوجَع ؛ كالذي يجده المجروح في جرحه ؛ إذا ضَرَبَ عليه ، فكان الشَّيطانُ لا يجد منفذاً إليَّ إلا منها . وفقدت الصَّديقَ ، وعَونَه ، فما كان يُقبِل عليَّ صديقٌ إلا في أحلامي من وراء الزَّمن الأول !

قال مجاهد : والحبيب ؟

فتبسَّم الرَّجل ، وقال : إذا فرغَت الحياةُ من الذي هو أقلُّ من الممكن ؛ فكيف يكون فيها الذي هو أكثرُ من الممكن ؟! إنَّ جوعَ يومٍ واحدٍ يجعل هذه الحياةَ حقيقةً جافيةً لا شِعرَ فيها ، ويترك الزَّمنَ وما فيه ساعةٌ واحدةٌ مُعَطَّرة . . . والبؤسُ يَقَظةٌ مؤلمة في القلب الإنسانيِّ تُحَرم عليه الأحلام ؛ وما الحبُّ من أوَّلهِ إلى آخره إلا أحلامُ القلوب بعضِها ببعض !

* * *

قال أبو عُبيد : وتَضَعْضَعْتُ لهذه الحياة المخزيةِ ، وأبْرَمَتْني أيَّامُها ، وحملتُ فيَّ الميِّتَ ، والحيّ ، ورأيتُ الشَّيطانَ ـ لعنه الله ـ كأنَّما اتَّخذني وِعاءً مُطَّرحاً على طريقه ، يُلقِي فيه القُمامة . . . ، وظهر لي قلبي في وساوسِ كالمدينة الخَرِبةِ

---

(١) « الخصاصة » : الفقر ، وسوء الحال ، والحاجة .

(٢) « المرمقة » : هو مرَّمقُ العيش : ضيِّقُه .

ضَرَبَها الوباء ، فأعمرُ ما فيها مَقْبَرتُها ؛ وعاد البؤسُ وَقَاحَ الوجهِ لا يستحي ، فلا أراه إلا في أرذلِ أشكالهِ ، وأبردِها ؛ ولقد يكون البؤسُ لبعض النَّاسِ على شيءٍ من الحياء ، فيأتي في أسلوبِ معتذِرٍ كالمرأة الدَّميمةِ في نِقابها[1] .

وقلت لنفسي : ما هو والله ! إلا القتل ، فهذا عُمرٌ أراه كالأسيرِ أقِيم على النِّطع ، وسُلَّ عليه السَّيف ، فما ينتقم منه المنتقِمُ بأفظعَ من تأخير الضَّربة ، وما يرحمه الرَّاحمُ بأحسنَ من تعجيلها !

وبثُّ أوَامِرُ هذه النَّفسَ في قتلها ، وأحدِّثها حديثَ الموت ، فسدَّدتْ رأيي فيه ، وقالت : ما تصنعُ بجسم كالمتعفِّن ، أصبح كالمقبور ، لا أيامَ له إلا أيامُ انقراضه ، وتفتيته ؟ بَيْدَ أنِّي ذكرتُ كلام (الشَّعبيِّ) في ذلك المجلس ، وأنا أحفظه كلَّه ، فجعلتُ أهُذُّه[2] ما أترك منه حَرْفاً ، واتخذته متكلماً مع نفسي لا كلاماً ، كنتُ كلَّما غلبني الضَّعفُ ؛ رفعتُ به صوتي وأصغيتُ كما أصغي إلى إنسانٍ يُكلِّمني ، فرأيتُ الشَّيطانَ بعد ذلك كاللِّصِّ ؛ إذا طمع في رجلٍ ضعيفٍ منفردٍ ، ثمَّ لمَّا جاءه وجد معه رجلاً ثانياً قوياً ، فهرب !

قال أبو عُبيد : ونالني رَوْحٌ من الاطمئنان ، وجدتُ له السَّكينةَ في قلبي فنمت ، فإذا الفزعُ الأكبر الذي لا ينساه من سمع به ، فكيف الذي رآه بعينه ؟

رأيتُني ميّتاً في يد غاسِله يُقلِّبه ، ويغسله كأنَّه خِرْقة ؛ ثمَّ حُمِلتُ على النَّعش كأنَّ الحاملين قد رفعوني يقولون : انظروا أيُّها الناس ! كيف يصير النَّاس ! ثُمَّ صلَّى عليَّ الإمامُ الشَّعبيُّ في مسجد الكوفة ، ثُمَّ دُلِّيتُ في قَعْرِ مُظْلِمَةٍ ، وهِيلَ التُّراب عليَّ ، وتُركت وحيداً ، وانصرفوا !

وما أدري كم بقيتُ على ذلك ؛ ثُمَّ رأيتُ كأنَّما نُفِخَ في الصُّور ، وبُعْثرت الأمواتُ جميعاً ، فَطِرْنا في الفضاء ، وكانت النُّجومُ غباراً حولنا كتراب العاصفة في العاصفة ؛ وإذا نحن في عَرَصَات[3] القيامة ، وفي هول الموقف !

وتوجَّهتُ بكلِّ شعرةٍ في جسمي إلى الرَّجاء في رحمة الله ؛ ورأيتُ أعمالي رؤيةً

---

(١) « نقابها » : النِّقاب : القِناع تجعله المرأةُ على القسم الليِّن من أنفها ، تستر به وجهها .
(٢) « الهذّ » : الإسراع في القراءة . (ع) .
(٣) « عرصات » : جمع عَرْصة ، وهي البقعةُ الواسعة بين الدُّور ليس فيها بناء .

أحزنَتْني ، فهي كمدينةٍ عظيمةٍ كلُّ أهلها صعاليكُ إلا قليلاً من المستورين ، أرى منهم الواحدَ بعد الواحد في السَّاعة بعد السَّاعة ندَروا ، وتَبَعثَروا ، وضاعوا كأعمالي الصَّالحة !

وذكرتُ أنِّي كدتُ أقتل نفسي فراراً بها من العُمر المؤلـم ؛ فنظرتُ ، فإذا الزَّمنُ قد ظهر في أبديَّتِهِ ، ورجع الماضي حاضراً بكلٍّ ما حَوَى ، كأنَّه لم يمض ، وإذا عمري كلُّه لا يكاد يبلغ طرفةَ عينٍ من دهرٍ طويل ، فحمدتُ الله أني لم أفتَدِ ألمَ اللَّحظة القصيرةِ القصيرة ، بعذاب الأبدِ الخالدِ ، الخالدِ ، الخالدِ !

وجِيءَ على أعين الخلْقِ بأنعمِ أهل الدُّنيا ، وأكثرِهم لذَّاتٍ في تاريخ الدُّنيا كلِّه ، فصاح صائحٌ : هذا أنعمُ مَن كانَ على الأرض منذ خَلَقها الله إلى أن طواها . ثم غُمِسَ هذا المنَعَّمُ في النَّار غَمْسَةً خفيفةً كنَبضَةِ البرْق ، وأُخرجَ إلى المحشَر ، وقيل له ـ والناسُ جميعاً يسمعون ـ : هل ذُقتَ نعيماً قطُّ ؟ قال : لا واللهِ !

ثُمَّ جيءَ بأتعسِ أهل الأرض ، وأشدِّهم بؤساً منذُ خُلقت الأرض ، فغُمسَ في الجنة غَمْسَةً أسرعَ من النَّسيم تحرَّكَ ، ومرَّ ، ثمَّ أُخْرجَ إلى المحشر ، وقيل له : هل ذُقت بؤساً قطُّ ؟ قال : لا والله !

وسمعنا شهيقَ جهنَّمَ وهي تفور ، تكاد تَميَّزُ من الغيظ ؛ فأيقنت أنَّ لها نفساً خُلقت من غضَبِ الله . وخرج منها عُنقٌ عظيمٌ هائلٌ ، لو تضرَّمت[1] السَّماء كلُّها ناراً ؛ لأشبهته ، فجعل يلتقطُ صِنفاً صِنْفاً من الخلق ، وبدأ بالملوك الجبابرة فالتقطهم مرَّةً واحدةً كالمغناطيس لتُراب الحديد ؛ وقَذفَ بهم إلى النَّار ؛ ثمَّ انبعثَ ، فالتقط الأغنياءَ المفسِدين ، فأطارَهم إليها ؛ ثمَّ جعل يأخذ قوماً قوماً ، وقد ألجمني العرَقُ من الفزع ؛ ثُمَّ طِرتُ أنا فيه ، ونظرتُ ، فإذا أنا مُحْتَبسٌ في مُظلمةٍ ناريَّةٍ كالهاوية ، ليس حولي فيها إلا قاتلو أنفسهم . ولو أنَّ بِحار الأرض جُعلَ فيها البحرُ فوق البحر ، فوق البحر ، إلى أن تجتمع كلُّها فيكون العمق كبعْدِ ما بين الأرض والسماء ، ثم تُسْجَرُ[2] ناراً تَلَظَّى ، لكانت هي الهاويةَ التي نحن في أعماقها ؛ وكنت سمعت من إمامنا الشَّعبي : أنَّ عُصاةَ المؤمنين الموحِّدين إذا ماتوا

(١) « تضرمت » : تلهَّبتْ .
(٢) « تسجر » : تُملأ .

على إيمانهم ؛ كانوا في النَّار أحياءً ، وجوارحُهم مَوْتى ؛ لأنَّ هذه الجوارحَ قد أطاعت الله ، وسبَّحته ، فكرُمَت بذلك حتَّى على جهنَّم ، ثمَّ يعذَّبون عذاباً فيه الرَّحمة ، ثُمَّ يُخرَجون وينتظرهم إيمانهم على باب النَّار ، فكان إلى جانبي رجلٌ قتلَ نفسه ، فسمع قائلاً من بعيد يقول لمؤمِن : اخرج فإنَّ إيمانك ينتظرك . فصاح الذي إلى جانبي : وأنا ، أفلا ينتظرني إيماني ؟ فقيل له : وهل جئت به ؟!

ورأيت رجلاً ذَبَحَ نفسه يريد أن يصرخ يسأل اللهَ الرحمة ، فلا يخرجُ الصَّوتُ من حَلقه ؛ إذ كان قد فرَاه ، وبقي مَفْرِيّاً ! وأبصرتُ آخرَ قد طعن في قلبه بمدية ، فهو هناك تسلخُ الزَّبانية قلبه ، تبحث هل فيه نيةٌ صالحة ؟ فلا تزال تسلخُ ، ولا تزال تبحث !

ورأيت آخرَ كان تَحسَّى من السُّم ، فمات ظمآنَ يتلظَّى جوفُه ، فلا تزال تَنْشأ له في النَّار سحابةٌ رَوِيةٌ ، تَبْرُقُ بالماء ، فإذا دنتْ منه ، ورَجاها ، انفجرتْ عليه بالصَّواعق ، ثمَّ عادت تَنشأ ، وتنفجر !

وقال رجل : إنَّما كنت مجنوناً ، ضعيفاً ، عاجزاً ، فأزهقتُ نفسي . فنودِيَ : أو ما علمتَ أنَّ اللهَ يحاسبك على أنَّك عاقلٌ لا مجنونٌ ، وقويٌّ لا ضعيفٌ ، وقادرٌ لا عاجز ؟ كنتَ تعقل بالأقلِّ : أنَّك ستموت ، وكنت تَقوَى على أنْ تصبر ، وكنت تقدر أن تترك الشَّرَّ .

وقال رجلٌ عالمٌ قد حزَّ في يده بسكينٍ ، فمات : « لم يكن الكمال من الدُّنيا ، ولا في طبيعتها ، ولا هو شيء يدرك » . فصرخ فيه صوتٌ رهيب : « ولكنْ من عَظَمةِ الكمال : أنَّ استمرارَ العمل له هو إدراكه ! » .

* * *

قال أبو عُبَيد : ثُمَّ انتصب بإزائي شيطانٌ ماردٌ أحمر ، يلتمعُ التماعَ الزُّجاج فيه الخمر ، فقام في وجهي ، وقال : بماذا جئت إلى هنا يا عدوَّ الخمر ؟ فما كان إلا أن سمعت النِّداء : شفَعَتْ فيك الخمرُ التي لم تشربْها ، اخرج ، إنَّ إيمانك ينتظرك .

فصحت : الحمد لله ! وتحرَّك بها لساني ، فانتبهت .

لقد علمت : أنَّ الصَّبرَ على المصائب نعمةٌ كبرى ، لا يُنعِم الله بها إلا في المصائب .

* * *